الفصل السادس

تشخيصات ووصايا للحركات الإسلامية المعاصرة

د. حسان حتحوت (*)

(*) الأستاذ الدكتور حسان حتحوت:

* من تلاميذ الإمام الشهيد حسن البنا الأقربين، وله يدين بصياغة شخصيته الإسلامية.
* كان من المتطوعين لفلسطين عام ١٩٤٨، وعمل بالكويت ربع قرن من الزمان وكان أستاذًا ورئيسًا لقسم أمراض النساء والتوليد بكلية الطب بجامعة الكويت منذ إنشائها عام ١٩٧٥، حتى استقال عام ١٩٨٨، ليصرف جهده إلى العمل الإسلامي في أمريكا.
* رسخ القدم في ثقافتيه العربية والإنجليزية وله بجانب منشوراته العلمية التي تقارب المائة، مؤلفات باللغتين منها ديوانه الشعري «جراح وأفراح» وكتابه بالإنجليزية عن «الجوانب الإسلامية لعلم أمراض النساء والتوليد»، إذ أدخل ذلك ضمن المقرر الدراسي لطلابه بجامعة الكويت وعدة كتب أخرى.
* عضو مجلس الأمناء للمنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، وعضو لجنة أخلاق المهنة للاتحاد الدولي لأمراض النساء والولادة، وعضو بعديد من الهيئات الطبية العربية والدولية
* من أهل الفكر والقلم واللسان والاتزان، ويقفها جميعا على خدمة الإسلام.

فى قصد الله ومشيئته أن يخلق الإنسان ليضيف إلى الخلائق التى يحملها هذا الكوكب الأرضى مخلوقًا يختلف عنها ويسمو عليها. وليس مناط هذا التفرد اختلافًا فى تركيب جسم الإنسان، فهو كغيره من المخلوقات مركب من تلك العناصر التى تشتمل عليها طينة الأرض. وإذا قارناه بما يسمى الحيوانات العليا وجدناه يشاطرها نفس الوظائف من دورة دم وتنفس وتغذية وحركة وتناسل، ومع ذلك فلسنا بحيوانات. نحن أعلى منها لا بتركيب كيميائى ولا بوظائف بيولوجية، ولكننا وحدنا صعدنا خطوة لم تصعدها الحيوانات، هى أننا رغم جسمنا الطينى جاوزنا عالم البيولوجيا إلى عالم القيم.. وفى هذا العالم زودنا بمفهوم الخير والشر، وبطاقة العلم والتعلم، وبملكة التحليل والاجتهاد، ثم بالإرادة التى تختار اختيارها الحر الذى يفضى بها إلى موقف المسئولية.

الإنسان إذن مسئول عن تصرفاته فى حدود طاقته. والموقف الإسلامى صرح فى تثبيت هذه المسئولية، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، ومن شاء فليكفر، والنبى مذكر لا مسيطر، ولا إكراه فى الدين، ولا تزر وازرة وزر أخرى. وما دمنا نؤمن بالحساب ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥ - ٢٦] فلا بد إذن من أن نؤمن بداهة بالحرية، لأن فكرة الحساب وعدالته تسقطان إن لم يكن المحاسب حرّا، حرّا فى صواب عمله وحراً فى خطأ ارتكبه.. وأساس الحساب إذن الحرية، والإنسان إذن ليس مخلوقًا مبرمجًا بغرائزه ولكن بإعمال عقله فيها وإنفاذ إرادته الحرة، فمن قسره على شر أو على خير كان هذا القسر عدوانًا على إنسانيته لأنه عدوان على حريته. وإذا

كان على القوانين الوضعية أو الشرعية أن تأخذ مجراها من حيث هى ضرورات لتنظيم المجتمع، فما هى ببديل عن الضمير المستجيب لهدى الله والمتجاوب مع الحكمة والموعظة الحسنة، وفى كافة الأحوال تظل فكرة الحساب معتمدة على فكرة الاختيار ويظل جوهر الإنسانية هو الحرية.

بهذه المقدمة أنظر إلى الجماعات الإسلامية على وجه الإجمال، فيخيل لى أنها فى الغالب الأعم لم يتضح لها هذا الموقع المحورى للحرية فى أصل خلق الإنسان كما أراد الله له وكما بينه القرآن الكريم. ما زال الكثيرون فى غموض من أن طبقة الأوامر والنواهى فى الدين مسبوقة بطبقة أعمق وأسبق وهى طبقة الحرية، وأن الأوامر والنواهى لا تلغى غائية الحرية فى نواة جبلة الإنسان. ولقد أدى غياب الفهم الصحيح لهذه الحقيقة إلى محاذير لعل أهونها التمهيد للملحدين أن يتهموا الدين بأنه يصادر الحرية، مع أن الدين يعلمنا أن الله قصد بخلق الإنسان أن يخلق كائنًا حرًا، ولهذا فهو مسئول. . أو كائنًا مسئولاً فلهذا هو حر، والحرية والمسئولية فى منطق الدين المنزل والعقل المجرد والفطرة السليمة وجهان لعملة واحدة. ولهذا وجدنا لدى الجمعيات الإسلامية ـ أفرادًا أو جماعة ـ ضيقًا بالرأى الآخر وتضييقا عليه. من لم يكن رأيه نسخة طبق الأصل من رأى الجماعة فهو إما منشق عليها أو معاد لها.

ورأينا كثيرًا من الاجتهادات المخلصة تثير الهجوم الحاد أو الدفاع الحاد، ويصنف أصحابها فى مراتب منها الخيانة أو العمالة أو المروق من الدين أو ابتغاء الفتنة أو تفريق الصف، فى غياب كامل لمفهوم الحوار الموصل الهادئ الذى ينشد الحقيقة ويرى أن لها أكثر من باب، وأن للطرف الآخر حقًا فى رأى آخر ولا بأس بذلك ما لم ينكر معلومًا من الدين بالضرورة أو يحل حرامًا أو يحرم حلالا، وأن الطرفين قد يتبادلان وجهات النظر، فإذا لم يتفقا فلا بأس ولا حرج ولا خصام ولا قطيعة وما زالت البسمة على الثغر والأخوة فى القلب والتعاون قائمًا فيما سوى ذلك ومداه طويل وعريض. وننزه اللسان المسلم والقلم المسلم والقلب المسلم عن اللجاجة والطعن والتجريح وإفساد ذات البين، فذاك هو الحالقة لا تحلق الشعر ولكن تحلق الدين.

رأينا كثيراً من الجمعيات ـ كبيرة وصغيرة ـ تحشد الأتباع والأنصار وتأخذ منهم العهد على السمع والطاعة لا على تكريم الإنسان والمطالبة بحريته . . وآنسنا فى البعض منها تكريسًا للولاء للجمعية ينافس الولاء للإسلام مع أن الإسلام غاية والجمعية وسيلة من الوسائل . . ولو سألت رأيى فى مسألة السمع والطاعة لأجبت بما صارحت به فى الأربعينيات من أن مفكراً واحداً هو للدعوة خير من ألف جندى، وإنما تجب السمع والطاعة فى جيش يحتشد لحرب أو يخوض معركة عسكرية، أما فى سياق الدعوة الطويل فالمطلوب إعداد رأى عام مسلم لا قوة ضاربة مسلمة . . ولعل المتفكر المتدبر لدروس الماضى القريب والبعيد يدرك أن هذا هو الطريق الوحيد وإن كان الطريق البعيد . . ولكننا نكاد نحرم أنفسنا من الاستفادة من دروس الماضى القريب والبعيد . . ليس من اهتمامات الحركة الإسلامية أن تنظر نظرة علمية تحليلية دارسة إلى حركات إسلامية سابقة لترى أين أخطأت وكيف داست على الألغام التى وضعت لها فى طريقها، وكيف كان من الممكن أن تتقى وتستنبط من ذلك هاديًا ليومها وغدها . . وحتى لا تكون الحركة الإسلامية موجات من الفراش تندفع مجذوبة لبريق النار فيكون نصيبها الاحتراق . . موجة إثر موجة إثر موجة . . وإذا كان هذا مقبولاً فى عالم الفراش فليس بمقبول لدى البشر . إن الاكتفاء باتخاذ موقف المعصوم الذى لم يخطئ أو موقف الحتمية فيما كان فليس فى الإمكان إلا ما كان يحرم الإسلام من الاستفادة من التجارب كما يحرم الجماعة من التخطيط السليم للمستقبل .

وهذا خطأ شائع فى بلادنا، فما رأينا حكومة ولا حزبًا ولا جماعة تعترف بخطأ سابق، ومن المزعج أيضًا أن المؤرخين الذين تصدوا للكتابة عن الحركات الإسلامية كتبوا من منطلق أحكام مسبقة فكان المؤرخ إما محامى دفاع أو محامى هجوم بحسب موقفه العتيد من الإسلام أو من الحركات الإسلامية . ولعل الحركات الإسلامية القادرة والمستنيرة تحسن صنعًا لو حشدت أو استأجرت من يقوم بهذه الدراسات المجردة والمتخصصة ولو من خارج صفوفها ومن خارج صفوف أعدائها كذلك، مع شىء من التواضع من القيادات إن لم تكن ذات دراية

بالدراسات التاريخية أو التحليل السياسى، ومع الحكمة والإخلاص اللازمين لمواجهة النتائج ثم الاستفادة منها.

ونعود فنؤكد أنه لا مستقبل للحركات الإسلامية إلا إذا كان أسلوب إداراتها وتعاملها مبنيًا على نظام عام لا على أفراد، وقراراتها صادرة عن المشورة والحوار لا على أمر القيادة فردًا أو أفرادًا. ويجب أن تكون القاعدة الشعبية ذات كلمة مسموعة ومطاعة فى تسيير الأمور واستنباط النظام الذى يكفل ذلك. والقاعدة دائمًا غنية بالمثقفين والعلماء والمقتدرين ممن لا يسمح الاتجاه الهرمى بوجودهم فى قمة القيادة الضيق والذى رأيناه فى بعض الأحوال يقع فى غلطة الاستحواذ على السلطة.. إن اتجاه السمع والطاعة يجب أن يتغير فيصب من القاعدة إلى القيادة وليس العكس، وإلا استحالت القاعدة إلى عناصر سلبية تستسهل أن تأتمر وتلقى بعبء التفكير وحق التفكير على القيادة، وتنفض عنها العناصر الفعالة والإيجابيات الفكرية المفيدة التى تحترم نفسها ولا تستطيع الإبداع والإثمار خلال نظام ديكتاتورى.. ويظل صحيحًا أن ما ننتقده فى حكوماتنا نمارسه نحن فيما بيننا وفيما بيننا وبين غيرنا، وظللنا نبذل الوقت والطاقة والجهاد نعالج أمور الإسلام وأمور الأمة وأمورنا دون أن نتصدى للداء الأصيل والمرض الأساسى الذى يؤودنا وهو الاستبداد.

ومن الأمور الأساسية بالنسبة للعمل الإسلامى أن يدرك القائمون به أن تاريخ الاستبداد لدينا طويل. لقد جاء الإسلام ليحرر الإنسان وقد حرره فعلاً. ولكن دعونا نتصارح ونعترف بأنه منذ الفتنة الكبرى بين على ومعاوية وقعت الأمة فى قبضة الديكتاتورية فلم تزل فى قبضتها إلى الآن. الملك الذى أقامه السيف لم يزل محروسًا بالسيف. قد يكون الحاكم صالحًا فتنصلح الأمور، وقد كان ذلك فعلا فى فترات من تاريخنا، وقد يكون الحاكم غير ذلك فتسوء الأمور، ولكن على الحالين كان الحاكم هو السيد المطاع والآمر الناهى. على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام كان الواحد من المسلمين لا يتحرج أن يراجع الرسول فى تصرفه كما حدث قبيل بدر، ويسأله إن كان وحيًا فيطاع أو رأيا فيراجع، وكان الرسول يتقبل ويستمع ويمتثل للرأى الوجيه. ثم انتقل الرسول إلى جوار ربه فانتقلت

القيادة إلى أبى بكر بعد نقاش وحوار وتقليب للرأى واختلاف فيه، ثم مبايعة من قبل من حضر السقيفة من المسلمين على اعتبار أنهم يمثلون من وراءهم فلم يتمرد على تلك البيعة أحد. وتم استخلاف عمر وعثمان وعلى بصور مختلفة، ولكن الدرس المستوعب منها أنه لا يوجد قالب معين على الأمة من بعد أن تتقيد به فلها أن تتخير الأصلح، وأن انتقال السلطة من يد إلى يد لم يكن عنوة، وأن الحاكم أجير لدى الأمة، وأنها رقيبة عليه لا تتورع عن تقويمه، كمثال المرأة التى ردت قول عمر وهو يحث على اختصار المهور، والرجل الذى أنبأه أن لو رأينا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا، وكانت البيعة مشروطة ومقيدة كما قال أبو بكر: أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم، فاستقر بذلك أن الأمة التى تعطى البيعة تملك أن تسحب البيعة.

انتقض ذلك كله بقيام الحكم الأموى. ومن يومها وكرسى الحكم محروس. وانتقال السلطة من يد ليد يتم بمعزل عن رأى الأمة.. واستمر ذلك حتى يومنا هذا. وبينما تمكن الناس فى أوروبا ومن بعدها أمريكا على استنباط وسائل تكفل انتقال السلطة سلميًا وبدون انقلابات وبدون إراقة دماء، واستنادًا إلى اختيار الأمة عن طريق ممثليها بقى ذلك عندنا معطلاً. ولا يخالجنى ريب فى أن الأمة الإسلامية لو استمرت فى تطورها الطبيعى دون أن تعترضه الفتنة الكبرى لاستنبطت نظامًا قد يكون أشبه بالديمقراطية المعاصرة، لولا أنه يؤمن بالله ويلتزم بالإسلام، بعكس الديمقراطية الغربية التى لا تحلل ولا تحرم إلا على أساس أغلبية الأصوات. وفى هذا المناخ الديمقراطى فعلا المفاهيم الإسلامية بما فيها الحرية وكرامة الإنسان والسعة للآراء المختلفة وسلامة الحوار ومباشرة الأمة لشئونها لا إسنادها للفرد، وعبء الأمة ينبغى أن تحمله أمة لا فرد. وقامت حضارة الإسلام فرادت كل المجالات من علم ولغة وفن وفقه وفلسفة وفتح.. مجال واحد ظل ضامرًا هو ما نسميه الحقوق الدستورية للأمة ولأفرادها.. فظلت هذه النقيصة هى المرض الكامن الذى سيفعل فعله مهما طالت فترة الحضانة، والقنبلة الموقوتة التى انفجرت فيما بعد فأدت إلى المظالم وإلى الانقلابات المسلحة، وإلى تفتيت الدولة إلى دول ودويلات وإلى ذواء معانى

الخلافة لصالح مطامع الملك الدنيوية التى لم تجد عليها رقيبا ولا حسيبا. ومرت قرون نسيت فيها الأمة حقوقها وسلطاتها ودورها. ولقنت أن الاستسلام للسلطان الظالم أجدر بها من إيقاظ الفتنة وتعريض دماء المسلمين للإهدار، بدلاً من تذكيرهم بقول النبى: «إذ جاء على أمتى يوم لا تقول فيه للظالم يا ظالم فقد تودع منهم ولبطن الأرض خير لهم من ظهرها».

وتمر القرون، ويتقدم الناس، ونزداد اقتناعًا بأن الاستبداد يئد الأمم.. وأن المستبد حتى إن عدل فهو يحرم الأمة واجبها ويزيدها جهلاً به وعجزًا عنه، والمصارع القوى إن كف عن التدريب والتمرين والممارسة ارتخت عضلاته ووهنت قوته وصار ضعيفًا مهينًا، فهذا ما آلت إليه الأمة. وما زال هناك من الحكام من ينادى بأن أمته لم تتهيأ بعد للديمقراطية فإذا هو كإنسان يحمل طفله على كتفه على الدوام، لأن الطفل لم يتعلم المشى وينسى أن الطفل بهذه الطريقة لن يتعلم المشى. وما زال هناك من يحاول أن يكسو الديكتاتورية بغلالة من المناظر الديمقراطية وهو يعلم والأمة تعلم أن حقيقة الديمقراطية غائبة وإن وجدت صورتها. وما زال هناك من يقول بأن الشورى غير ملزمة للحاكم، وتاريخ الإسلام كله أن أعطانا درسًا بليغا واحدًا فهو ضرورة إيجاد الضمانات التى تكفل الرقابة على تصرفات الحاكم وتعديلها، أو تقويمها أو عزله واستئجار غيره إذا دعت الحال، فإنما كانت الفجيعة الكبرى والمستمرة من يوم أن وقعنا فى براثن الاستبداد.

ولعل هناك من يستغرب أن نطنب هذا الإطناب فى الحديث عن الحرية وعن الديمقراطية وموضوع الحديث هو الحركات الإسلامية. ولكننا لا نندم على هذا ولا نعتذر عنه وسنظل نكرره. إن طيور الزينة الملونة التى استنبتت داخل أقفاصها لمئات من الأجيال أو الآلاف قد لا تحسن الطيران حتى إن فتح لها باب القفص، فهذا ما أوصلتنا إليه الديكتاتورية على مدى القرون.

والمطلوب إصلاح ذلك، الإصلاح المطلوب هو النفسانى الذى يحل هذه العقدة النفسية، عقدة القفص، عقدة الاستبداد. والناظر إلى سجل الحكام فى

البلاد التى تنتسب إلى الإسلام لا يستطيع أن يتوسم أن الحكام هى التى ستؤدى هذه المهمة العلاجية . . ولو طاوعت خيال هؤلاء فتصورت أن الحكم أو كل إلى الحركات الإسلامية غدا فلا أحسبها ستقدم للأمة هذا العلاج المطلوب ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه . وأحسبها على أحسن الفروض وأجمل الظنون ستكون ديكتاتورية أخرى ولكن فى الاتجاه الآخر . ولا يشفع للدكتاتورية عندى أن تكون إسلامية فإن الدكتاتورية مرض مهما كان . وينبغى أن يبرأ منه الحكم الإسلامى لا أن يصاب به . المسألة مسألة مبدأ وهو أن السيادة يجب أن تكون للأمة على الحاكم فهو موظف لديها لا أن تكون للحاكم على الأمة يأمر وينهى بما يشاء . المسألة مسألة نظام لا مسألة أفراد . . وتبقى بعد هذا عملية تكوين الأمة المسلمة الواعية بإسلامها والحارسة له والمسئولة عن إنقاذه . . وهو تكوين لا يمكن أن يكون بالقهر ولا بالعصا ولا حتى بالقانون ، بل هو ثمرة الإقناع والاقتناع بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبهذا وحده كون الرسول أمة الإسلام عندما دعا إلى الإسلام .

الآن أشعر أننى رسمت الدور المطلوب من الحركات الإسلامية أن تؤديه . . وبدايته أن تفقه وأن تقتنع به ، ثم أن تعمل به وتتعامل وتقدم النموذج الذى يجب الانتباه والاقتناع ، وتكون المدرسة التى تقدم المعرفة به والتدريب عليه ، ولعلها تطبع عليه الجيل الجديد إن زاوله المسلم فى بيته وأسرته أو أقامت له الجمعيات الإسلامية المدارس والمعاهد التى تهيىء الثمرة المطلوبة . . على الجمعيات الإسلامية أن تعرف قدر الحرية فتطالب بها وتجاهد فى سبيلها ؛ لأنها تدرك مغبة غيابها مهما أغرانا الإصلاح المنشود باختصار الطريق إلى الإصلاح على حساب حقوق البشر وفى طليعتها الحرية .

ولا يخالجنى ريب فى أن باب الحرية إن فتح للجميع فالنصر فى نهاية الطريق الطويل للإسلام ، لأن البقاء للأصلح ، ويمتاز الخبيث من الطيب ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . . وإذا أقفل باب الحرية فالخاسر هو الإسلام ، لأن شجرته لا تنمو فى غياب الحرية .

فإن اتفقنا على ذلك فرحنا نجمع حوله الأمة بطولها وعرضها ورأيها العام ـ وليس قوة ضاربة منعزلة عن الأمة ـ فلنعلم أن أساس الدعوة المحبة . إن المفتاح النفسى لأكثر المنتمين للحركات الإسلامية اليوم هو أن هناك عدوا نكرهه ونهاجمه ونقاومه ونشتمه ونفرغ عليه غضبتنا ونقمتنا . لا بد من هذا المكروه لنكرهه ونحاربه . . وهو موقف يستحق المراجعة المستأنية . . إن الكره سلاح فعال فى الهدم ، ولكنه لن يعين أبدًا على البناء . . الكره يمكنك من خلع ملك أو إمبراطور أو القضاء على الخصوم والمعارضين ، ولكن بناء الأمم ونشر الدعوة لا سلاح له إلا الحب . ورحم الله الأستاذ حسن البنا عندما كان يكرر ويؤكد : سنقاتل الناس بالحب ، وما دام الداعية دعاية فليعلم أن سلطانه الوحيد على الناس هو أن يحبوه فيحبوا ما يدعوهم إليه . من حق الدعوة على الدعاية أن يكون محبوبًا . . لا أقصد محبوبًا من نفسه ولكن من الآخرين . . من هؤلاء الذين رآهم على خطأ وعلى ضلال ويريد أن يهديهم وأن يكسبهم للإسلام لا بأمره السامى ولكن بطول الأناة والمصابرة والمثابرة والتآلف والبسمة التى لا تخبو ، والإحسان الذى لا ينقطع . ولقد أتيح لى فى حياتى أن أشهد نماذج من هؤلاء الدعاة الهادين المهديين ، ولكن أنظر إلى الساحة الآن فأجد هذا الطراز أندر من الكبريت الأحمر . ألا فليعلم أبناء الحركات الإسلامية أن غلطة السابقين ـ وما زالت تتربص باللاحقين ـ هى أنهم اصطدموا وما زالوا فريقًا من الأمة وكان الأجدى على الإسلام وعليهم أن يصبروا حتى يكونوا هم الأمة .

ولقد أسهبت أقلام مخلصة فى نقد بعض تصرفات الجماعات الإسلامية . . منها إنفاق العمر والطاقة فى فرعيات مختلف فيها بدلاً من كليات متفق عليها ، ومنها الجنوح إلى العنف من غير أى سند إسلامى ، ومنها المرارة والغلظة وحسبانهما من أساليب الدعوة ، ومنها محاولة بناء البيت من أعلاه لا من أساسه بالاهتمام بالشكليات والمظهريات وإضفاء صفة الفريضة على ما ليس فى الدين بفريضة ، ومنها السطحية فى العلم بالدين وتعلمه ، ومنها الانكفاء على الماضى ومآسيه والانحباس فيها دون التداعى إلى التخطيط للمستقبل وقضايا المصير ، ومنها الإغراق فى الدعوة نظريًا والتنكر لأخلاقياتها فى الحياة اليومية العملية ،

ومنها الحساسية المرضية إزاء المرض وضد المرأة، والخلط بين ما هو تراث مظلم وبين الدين، وفى رؤيانا أن أغلب العاملين فى الحقل الإسلامى اليوم ما زالت على أعينهم غشاوة تحجبهم عن الرأى الإسلامى الصحيح فيما يتعلق بالمرارة.

وواضح أننا سردنا كل هذه المشاكل سردًا سريعًا مع أن كلاً منها يصلح بابًا بحاله دراسة ونقاشًا وكتابة.. ولكننا قصدنا قصدًا إلى استعجالها لأنها فى نظرنا أعراض للمرض الأصيل. هذه أعراض الانغلاق.. وستظل معنا حتى نؤدى دينًا ظل فى ذمتنا قرونا متطاولة، وهو أن نكتب الفصل الذى وئد من فصول فقهنا: فقه الحرية.

* * *